

مصافحة بين أدب نجيب محفوظ وسينما حسن الإمام

«بين القصرين»: فيلم وثق لثورة 1919 وأضاف لها أسئلة وجمالات

التوالي: اللص والكلاب، بين القصرين، بداية ونهاية، زقاق المدق، الطريق، القاهرة 30، خان الخليلي، قصر الشوق، السمان والخريف، مرامار، السراب، أثرثة فوق النيل، السكرية، الشحاذ، الحب تحت المطر، الكرنك، عصر الحب، الشيطان يعظ، وكالة البلع، قلب الليل، الحب فوق هضبة الهرم.

كانت تدور أحداث جميع رواياته. يضم المتحف، فيما يضمه من وثائق ومخطوطات ومقتنيات نادرة، مكتبة سينمائية تخص روايات نجيب محفوظ، التي تحولت إلى أفلام سينمائية، إذ وصل عددها إلى 21 رواية امتدت على مستوى أجيال ومراحل عمرية متباعدة من القراء والمشاهدين وصناع السينما ونقادها وهي، على

من الزمن (1911 - 2006)، أجرت إحدى المجالات حوارا مع ابنته هدى، تحدثت خلاله عن آراء والدها في الأعمال التي تناولتها السينما كما أعربت عن خوفها من أن يتعرض اسمه للنسيان مع مرور الزمن، لكن الجميع، اليوم، يبدي ارتياحه وغبطته لافتتاح المتحف الذي يحمل اسم الأديب الراحل في قلب القاهرة حيث

عشية الإعلان عن جائزة نوبل للآداب، ظلت الأسماء العربية خارج التخمينات والتوقعات، وبقي نجيب محفوظ حصاد العرب الأوحى في احتفالية الأكاديمية السويدية التي منحتها جائزتها عام 1988 وهو في سن السادسة والسبعين. وفي الذكرى الثالثة عشرة على رحيل الأديب الذي امتدت حياته إلى ما يقارب القرن

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي



العمل الذي اعتبره النقاد والدارسون "جوهره التاج وواسطة العقد" في المنجز الروائي لنجيب محفوظ الذي مسح قرابة القرن من تاريخ القاهرة، هو الثلاثية الشهيرة التي تضم "بين القصرين"، و"قصر الشوق" و"السكرية"، وقد كتبها محفوظ بين عامي 1956 و1957، علما أن نيله لجائزة نوبل للآداب عام 1988، كان عن مجمل أعماله التي قالت عنها الأكاديمية السويدية في حفل التتويج إنها "تخاطبنا جميعا".

توقف عند رواية "بين القصرين" التي تناولتها السينما عام 1962، تحت نفس الاسم، وكانت من إخراج حسن الإمام، وذلك لما تمثله من قيمة وثائقية أُرخت لثورة العام 1919 وكل ما حملته من تحولات اجتماعية وسياسية، يُراهن عليها في تأسيس وعي جديد كان بإمكانه أن يُشكل نهضة حقيقية، تقيم القطيعة مع موروث مهترئ، وترنو إلى الالتحاق بركب الحضارة الحديثة في تلك المرحلة المفصلة من تاريخ مصر والمنطقة.

كل ذلك، بالإضافة إلى القيمة الجمالية والبعد الفني للفيلم الذي لم يكن مجرد محاكاة وترجمة بصرية للأثر المكتوب، بل مجازة لحركة إبداعية تشق طريقها وسط الكبار آنذاك، حيث تعيش السينما الواقعية مجدها في العالم، وتتغشح حركات التحرر الاجتماعي والسياسي عبر عوامل إبداعية وأساليب تعبيرية تميزت بالجرأة والمصارحة في كشف أسباب الخلل ومواطن التخلف.

كان لدى مصر آنذاك ما لا يمنحها من أن تكون في صفوف الكبار من صناع السينما الواقعية: إرث أدبي وفكري أسس له مفكرون ومثقفون استثنائيون، صناعة سينمائية أقامها "الخواجات" وعلومها لأبناء البلد، بالإضافة إلى جمهور يتفاعل مع كل ما يمسسه ويخاطب تطلعاته، ويحترم ماضيه.

ولعل أهم دليل على نبوغ والمعية هذا الأثر الأدبي، ما قاله المفكر طه حسين في شهادته عن ابن جيله نجيب محفوظ، "أناح للقصص أن تبلغ من الإيقان والبراعة، ومن العمق والدقة، ومن التأثير الذي يشبه السحر ما لم يصل إليه كاتب مصري قبله".

«بين القصرين» وما بين الحريين

الفيلم يبدأ بحدوثه مصرية من نسج خيال صاحب الثلاثية، وابن القاهرة الشعبية، دارس الفلسفة الذي اغواه الأدب، وراصد التحولات المجتمعية العميقة من خلال مشرّبية مصرية تطل منها امرأة على شوارع تتقاطع فيه الأهواء والرغبات والطموحات،

وينتهي عند مقولة كارل ماركس في أدب وأند الواقعية الفرنسية بلزك، الذي تأثر به نجيب محفوظ "إنه يساعد على فهم المجتمع أكثر من كتب التاريخ والاقتصاد".

أسرة السيد أحمد عبدالجواد، إبان الحكم الإنكليزي وقبيل اندلاع ثورة 1919، هي منطلق نجيب محفوظ ومبتغاه في الثلاثية التي ترصد أهم التحولات والصراعات من خلال رب الأسرة الذي يتعامل بصرامة شديدة مع أفراد عائلته، ظنا منه أنه يضبط إيقاعها دون حدوث أي نضار، فيعيش نوعا من الانقصاص يتمثل في قسوته داخل البيت، وجبروته إزاء زوجة خانعة، وانحلاله في الخارج بين أحضان الغانيات، بينما ينقسم أبناءه بين واحد يسير على خطى أبيه، وآخر ينضم إلى أحد التنظيمات السياسية السرية، في إشارة إلى تسرب وعي المصريين، وفرغوا من مفاهيم الجلاء، وقبضوا على سعد زغلول، وقاموا بنفيه خارج البلاد، لتقوم ثورة 1919 التي اتحد خلالها الهلال مع الصليب، واستطاعت القوات الإنكليزية إخماد الثورة، وأقامت متاريسها في شوارع الجمالية، ليحبس السيد عبدالجواد في منزله.



أعمال نجيب محفوظ «تخاطبنا جميعا»



جوهره المنجز الروائي لنجيب محفوظ

الثلاثية هي حماة بنات سي السيد، وهي غير عربية، وكانت لها كلمتها باعتبارها سلبية باشاوات العصر ولا أدري ما هو مدلول كونها غير عربية، وهل يشير هذا إلى تفوق المرأة الأجنبية في حينها عن المرأة العربية المقهورة".



استند فيلم «بين القصرين» على حائط متين اسمه رواية لنجيب محفوظ، مع كل ما تمثله من أسباب نجاح على صعيد الطرح والمعالجة والتشويق، لكنه بنى نجاحاته أيضا على مرحلة كان فيها النضال النسوي في مصر في أوجه عطائه قبل الانتكاسات التي لحقت به في ما بعد، عقب صعود التيارات السلفية المتشددة، والتي شيطنت المخرج حسن الإمام، وحاولت اغتيال الكاتب نجيب محفوظ عقب الحادثة المعروفة في "ليلة السكاكين الطويلة" كما أسماها محبوبه.

لا يوجد عمل قديم المرأة، دون زيادة أو نقصان، كما قدمها فيلم «بين القصرين» الذي حظي برقم قياسي من المشاهد رغم نخوية الرواية، وهي معادلة تكاد تكون مستحيلة أو نادرة في تحويل رواية إلى فيلم، أي نزعها من بين أكف القراء إلى الصالونات، وإشاعتها فيلما جماهيريا في الصالات.

يرى الناقد والأكاديمي المغربي مصطفى بورسعيد، أن نجيب محفوظ يبرز في "بين القصرين" صورة المرأة المصرية "بكل ندوبها وأوجاعها مع الحفاظ على التطور التاريخي في بناء هذه الصورة"، مضيفا أنها "تخدم الرواية من جهة، وتكشف جوانب من مراحل تطور المجتمع المصري والعربي من جهة أخرى، فالمرأة هي أم وزوجة وابنة وخادمة ومنحرفة أي أنها نماذج بشرية للمجتمع من وجهة نظر نسائية ملمة وصحيحة".

أما الكاتبة ماجدولين الرفاعي، فتلقي بتساؤل مربك، لكنه قد يكون مشروعا من خلال قولها في معرض تناولها للمرأة في الفيلم، والرواية على حد سواء "المرأة القديرة والقوية في هذه

الإمام في الفيلم. الكل يتحرك ضمن المسار الذي أريد له في "بين القصرين"، فلا مكان للحقائق من أعناقها، ولا وجود لمصير مغتصب.. ومع الكثير من المفاجأة والتشويق والإدهاش.. ليس هذا ما يجب أن تكون عليه رواية جميلة، ويظهر فيه شريط مدهش؟

المصريون بجميع أطيافهم

المصريون حاضرون بجميع أطيافهم في فيلم "بين القصرين": الزوج المستبد، الزوجة الخنوعة، الفتاة الحاملة، الشاب المخامر، الضحية المستهتر، المرأة اللعوب، المواطن المتدين، الرجل المخدوع، المحتل المخاتل، المثقف الحالم.. وكثير من الحب الذي قال عنه محمد عليو، أستاذ الأدب العربي في جامعة القاهرة إنه "جعل المجتمعات أفضل، حتى لو كان هذا الحب يحدث على استحياء ورغم عن عادات المجتمع المصري، الذي كان ينظر إلى الحب باعتباره عيبا كبيرا في تلك الحقبة".

أما عن خفة الدم المصرية التي لم ينتبه إليها قراء ونقاد كثيرون، فقد قال عنها الشاعر نجيب سرور، بعد مشاهدته للفيلم وقراءته للرواية "إني أعجب على جميع النقاد عدم انتباههم إلى الكوميديا فأت كل نقادنا رغم كونها طابعا أصيلا للمزاج المصري الذي لا تستوقفه إلا النكتة الصارخة غير المعتادة".

"بين القصرين" كان فيلما "مصريا جدا" وواقعا إلى حد اعتبار كاتب روايته "بلزك العرب"، ولربما تفوق على هذا التصنيف، ابن حواري القاهرة التي لم يغادرها حتى في احتفالية نوبل، وبعث من يستلم الجائزة نيابة عنه، وضاهى إيميل زولا في انطباعيته، ونافس مدرسة الروائيين الإنكليز الإيواردين مثل كلزوردي، وبنيت، وغيرهما.. فلماذا تسكننا عقدة المقارنات ونحن من جعل جائزة نوبل تتكلم لسانا عربيا فصيحاً، وبلكنة مصرية؟

تحرر المرأة

المصريون يحتفلون هذا العام بالذكرى المئوية لثورة 1919، ولهذا التاريخ الذي اختاره نجيب محفوظ منطلقا لروايته، وجعل منه حسن الإمام

تكريما مرة أخرى؟